ما عارضها خطر او بهدف اصلاح ماء طيب من المركب، كما اشتهر هذا المرسى بامكاناته السمكية الغنية التي كانت "تجفف وتحمل الى بلاد افريقية.

والى جانب الميناءين المذكورين، نجد مرسى قرطاجنة او قرطاجنة، وغير خاف الدور التاريخي الذي قامت به مدينة قرطاجة وميناؤها في الحروب البونيقية التي جمعت بين الرومان والقرطاجنيين، الى ان التخريب الذي لحق المدينة بعد هزيمة القرطاجنيين، وبناء "تونس المدينة الجديدة البحرية ابان الفتح الاسلامي، ادى الى فقدان المدينة لمكانتها البحرية لصالح ميناء تونس والمهدية.

وفضلاً عن هذه الموانئ السالفة الذكر، يمكن ان نضيف مرسى المنستير ومراسي اقليم بزغة، ومرسى سرت وقابس وصفاقس وسوسة، واذا كانت هذه اهم المراسي في بلاد افريقية، فانه من خلال المادة المصدرية الجغرافية، نلاحظ أنها خصت مدناً بحرية برصيد من المعلومات ذات اهمية، وكانت هذه هي: اطرابلس وتونس والمهدية.

أطرابلس: كانت مقصد السفن الشرقية والمغربية بمختلف انواع السلع مقابل التزود بالصوف والكسوة الزرقاء والكحل والنعوسية"، ولعل الذي شجع التجار على التوجه الى هذا الميناء حمايته من الرياح، وسماحة تجاره. [تسامح تجاره] وقد حاولت طرابلس قاعدة الاسطول الاغلبي والفاطمي بعد ذلك منها تنطلق العمليات العسكرية البحرية خاصة في اتجاه مالطة وصقلية.

اما تونس فتختلف الروايات الجغرافية على أنها مدينة ازلية كانت تسمى تزشيش، لكن سرعان ما تطور عمرانها في العصر الاسلامي، فاصبحت المدينة تعرف بتونس التي كانت تفيد الاتنس فتطورت الى تونس وكانت للمدينة تتوفر على مرسى واحد هو مرسى رادس ثم تحولت الى قاعدة بحرية في عهد حسان بن النعمان الذي تمكن بفضل الخبرة القبطية من تأسيس دار الصناعة بها والتي انتجت سفنا عديدة [عبرض - الحبوب - الاسطابي]

وقد حصن ميناء تونس ببناء قصر بالجارية بعيداً عن سور من الغرب، تفصل بينهما سلسلة حديدية متينة تمنع المراكب من الدخول والخروج، وهي تقنية متطورة في مراقبة السفن الواردة على الميناء او السفن التي تود مغادرته، ولعل القصد من ذلك كان هو تنظيم التحكم في مراقبة عملية العادر والوارد خاصة والمدينة كانت قبلة لمختلف التجار وملتقى الركاب، كما كانت تحتضن الاسطول الرابع للخلافة الاموية والذي كان يرابط في برقة وتونس ثم ينطلق في عمليات الغزو نحو قبرص.

ومن خلال التصميم الذي اوردناه نرى تشفيك طبنة تونس فقد استرعى امرأن اساسيان اهتمامنا:

1 للمدينة عدة ابواب، أحدها عرف بباب البحر كان يوصل الى دار الصناعة

2 - وجود حي للمسيحيين [النصارى] يتوسط دار الصناعة وباب البحر.

ومن خلال هذا يطرح التساؤل عن الظروف التي جعلت السلطة المركزية في المدينة على السماح للنصارى باتخاذ حي خاص بهم بين دار الصناعة وباب البحر؟ ثم هل كانت هذه العناصر المسيحية تتحكم بحكم موقعها في النشاط التجاري للمدينة خاصة ما تعلق منه بالبحر؟ والواقع أن هذا الدور لهذه الأقلية المسيحية يبرز بشكل كبير على عهد الدولة الحفصية التي سعت من خلالها الى عقد عدة اتفاقيات مع جنوة وبيزا وقطالونية وصقلية.

أما المهدية فالمصادر تتفق على ان مؤسسها هو ابو عبيد الله الشيعي الفاطمي، وتحول اليها من رقادة عاصمة الاغلبية ولا شك ان الفاطميين في تأسيسهم لهذه المدينة الجديدة على ساحل البحر قد ابتعدوا عن دار الصناعة حتى النشاط البحري خاصة وان البناء قد بني على حساب الاحياء ذات العقود العلية باتساع عرضي يبلغ 26 متراً وطول

حوالي 57 متراً مع مدخل الى الميناء طوله حوالي 15 متراً
[Lombard: L'Islam .. de la première grandeur]
وبذلك بدأ التحكم في حركة المرسى ببناء برجين يقومان بحراسة السفن الداخلة والخارجة من المرسى بواسطة سلسلة حديدية يرسلها «حراس البحر».

ويبدو ان دار الصناعة في المهدية قد عرفت توسعاً مهماً اذ يورد البكري رواية مفادها ان هذه الدار يمكنها أن تستوعب مائة مركب، اما صاحب الاستبصار فيذكر ان دار الصناعة قيروان ان دار الصناعة كان بامكانها ان تستقبل ثلاثين مركباً، فهل يعني هذا ان حجم الميناء قد عرف تقلصا زمن الدولة الموحدية التي استرجعت المدينة من الملك روجار الثاني، ام ان الخلاف بين الرقمين / العددين / يدخل اساساً فيما اعتادت عليه المصادر من الزيادة في بعض الارقام لغية ابراز اهميتها. ومهما يكن من امر فان المدينة عرفت انتعاشاً تجارياً كبيراً، اذ كانت تقصد سفن الاسكندرية والشام وصقلية والاندلس، واذا كانت هذه على وجه الاختصار أهم القواعد البحرية ودور الصناعة والمراسي التي كانت حيوية في المغرب الاسلامي اذاً فما هي اهم المراسي ودور الصناعة في الجناح الغربي من بلاد المغرب الاسلامي في العصر الوسيط.

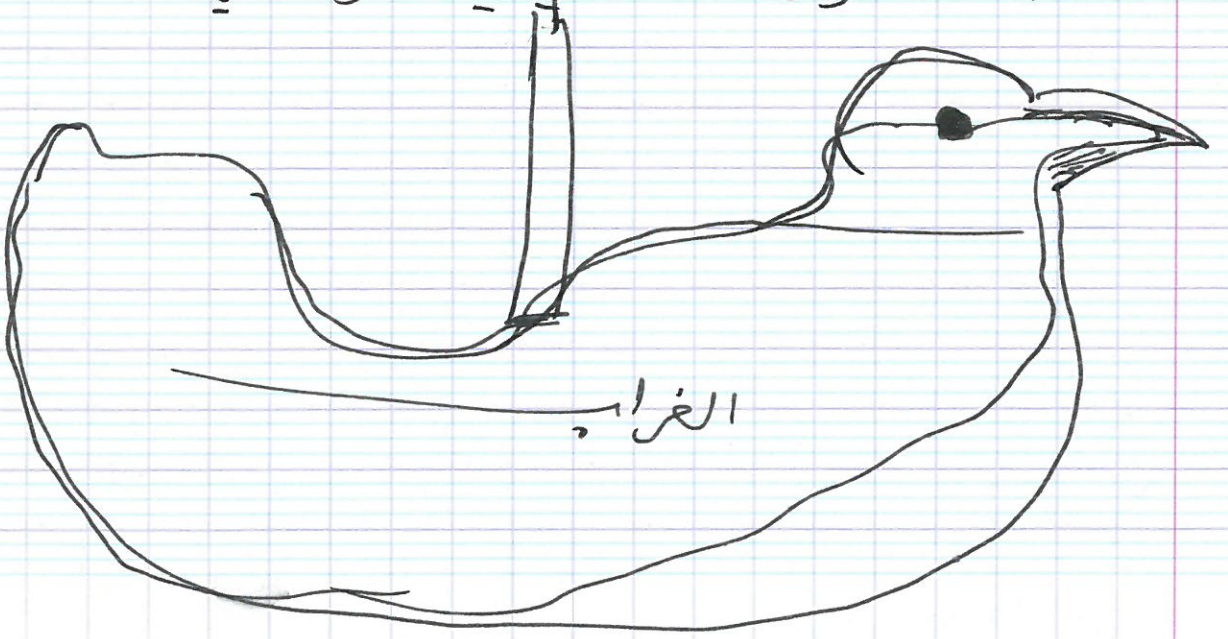

المراسي ودور الصناعة في الساحل المتوسطي الأندلسي.

توفرت الأندلس على ظروف طبيعية مكنتها من بناء العديد من المراسي، وقد كان الساحل الأندلسي الشرقي أوفر حظ من الجناح الغربي من حيث عدد المراسي، ولعل ذلك راجع الى اقدمية النشاط البحري في هذا الجزء، واتصاله بما حول جزر البليار وإيطاليا وجنوب فرنسا وسواحل المغرب والشامي المتوسطية، "لكن الساحل الأطلسي لم يبرز في المصادر التاريخية والجغرافية الا بعد ظهور النورمان. وهي تسميتهم عدة مواقع بحرية مطلة على المحيط الأطلسي، أو بحر الظلمات او الأطلنطي]...

أهم دور الصناعة والمراسي في الساحل الشرقي

من الأندلس التي يمكن ان نركز الحديث عنها هي طريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق (جبل الفتح) والمنكب والمرية وطرش وشلوبانية وشاجنتو (ماربيطر) ملاحظة: يصعب رصد كل المراسي الأندلسية لأنها كثيرة وعديدة ولهذا نركز فقط على التي كان لها دور بارز في عصري المرابطي والموحدي.

الجزيرة الخضراء. وقد احتلت مكانة متميزة في تاريخ العدوتين، حيث كانت أقرب نقطة الى بلاد العدوة. وقد توفرت على مرسى أشاد به الإدريسي وابن سعيد، ليس فقط في جانبه العسكري بل كذلك في شقه التجاري الذي كان يعرف حركة تجارية نشيطة.

وفي عهد الدولة المرابطية برزت الجزيرة الخضراء قاعدة بحرية تشكلت محور الخلاف بين يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد، ويرجع الفضل لصاحب "الحلل الموشية" الذي قدم لنا صادة علمية مهمة حول الحس البحري الذي تميز به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي استجاب واستقطب نصيحة أحد خبراء الأندلس الموجودين في

بلاط، والذي أنشأ عليه إذا هو أراد أن يلبي داعي الاستجابة
فمن الضروري أن يطلب من أمير الجزيرة أن يسلم له
الجزيرة الخضراء لتكون تحت تصرفه يجوز إليها متى
أراد ذلك ويلجأ إليها إذا ما داهمته في الأندلس
تطورات لم تحسب حسابها من قبل. وبذلك كانت
الجزيرة الخضراء أول قاعدة للأندلس تحط بها رحالها
الجيوش المرابطية، منطلقة من سبتة في عدد قدر
بحوالي سبعة آلاف فارس رسمي وغيرها من المتطوعة
وظلت الجزيرة الخضراء المرسى الرئيسي لعبور المرابطين
إلى الأندلس.

جبل الفتح وقد عرف عبر التاريخ الإسلامي وإلى
يومنا هذا بجبل طارق، نسبة إلى طارق بن زياد عقب
عبوره إلى الأندلس، وقد أشاد غير واحد من المؤرخين
والجغرافيين بما كانت جبل طارق نظرا لحصانته الدفاعية
واعتدال مناخه ونشاطه التجاري، وقد ارتبط هذا
الجبل في الفترة الموحدية باسم جبل الفتح تيمنا باستئناف
عملية الفتوح الموحدية في أرض الأندلس، ويلاحظ أن
الموحدين، بخلاف المرابطين الذين ركزوا على جزيرة
الأندلس مباشرة، فإنهم كانوا دائما يرغبون ومن خلال
اختيار موقع جبل طارق أن تكون المدينة منفصلة
عن الأندلس، يمكن قادة الجيش بوضع آخر الترتيبات
على خططهم العسكرية قبل الإقدام على أي مغامرة
في أرض الأندلس.

ودائما في إطار بناء هذه القاعدة وجدنا اضطرابا
كبيرا حول الخليفة الذي بنى بناءها، فصاحب المعطار إكتفى
بذكر أن المدينة بنيت في عهد أحد خلفاء بني المؤمن
دون أن يذكر إسم الخليفة، الحال أن هذه الرواية تبقى مستبعدة
إذا ما أخذنا بعين الاعتبار إتفاق المصادر حول عبد المؤمن
بن علي الذي تولى بناء المدينة وأحيت في عهده نخل

إلى جبل الفتح، لكن يبقى الاختلاف قائماً حول تاريخ البناء، فالمراكشي يذكر أن البناء كان بعد عبور عبد المؤمن إلى الأندلس، والأمر نفسه يؤكده صاحب الحلل الموشية و ابن الأثير وتبقى الرواية الأقرب إلى الصواب أو الحقيقة وتؤخذ بعين الاعتبار" هي رواية ابن صاحب الصلاة الذي كان معاصراً للأحداث وتؤكد صحتها هي الرسالة التي أرسلها عبد المؤمن قبل جوازه بما بنا بهز السنة، وقد سار على نهجه ابن صاحب الصلاة... الصلاة ابن ابي زرع والتي تفيد أن البناء كان قبل الجواز والذي حدده صاحب البيان في سنة 555 هـ/ 1160م. فكان البناء تاسع ربيع الاول من سنة 555 هـ/مارس 1160م وانتهى البناء منها في ذي القعدة من السنة نفسها وقد اورد "صاحب المعجب" العديد من الفوائد التي باركت هذا العمل و اكدت في مجملها اهمية الموقع الذي ترجم بشكل واضح عن مستوى ادراك الخلافة الموحدية بأهمية البحر وشؤونه و ضرورة [إجبارية] انشاء او بناء دور صناعة جديدة تمكن من توفير ما تحتاجه الدولة الناشئة من اساطيل قوية تستعملها في غزواتها البحرية.

وغير بعيد عن جبل الفتح، تبرز مدينة مالقة، التي يرجع تاسيسها الى زمن بعيد أيام الفينيقيين وسميت بمالكا [Malaca] بمعنى المملح نسبة الى اسماك المملحة في المملحات في مالقة. Salinas ومنها تحمل الى سائر بلاد الأندلس، كما كان للمدينة مرسى اعتبره الجغرافي مرسى صيفيا جيداً، كما كانت به دار لصناعة السفن و توثقت روابط المدينة التجارية مع منطقة شمال افريقيا في القرن 5 هـ/11-12م

أما المرية "Almería"

بلغت شهرتها الآفاق، وكانت لها أدوار مهمة في التاريخ الاسلامي في منطقة الغرب المتوسطي، وقد تعددت المصادر التاريخية والجغرافية التاريخية بوصفها

الاستراتيجي، اذ بنيت من طرف عناصر مهمة في نشؤ وتطور البحر وذات اهتمام بالغ به ويركب أمواجه ويحاكمه ومسالكه، فقد اهتمت بها الدولة الاموية المشرقية او كذلك الدولة الاموية في الاندلس ابان عصر الامارة وكذلك عصر الخلافة، فقد كانت ترابط بها اغلب وحداتها البحرية، ومنها تنطلق العساكر والاساطيل في اتجاه جزر البليار او السواحل الشمالية للبحر المتوسط، او في اتجاه سواحل العدوة إبان اشتداد الصراع الاموي الفاطمي.

ممتطية راكبة

والبحر مكانة المدينة عبر المراطين حيث كانت تأوي اساطولهم ومنها ينطلق في حملات بحرية، كما كانت تتجمع فيها قيادة الاسطول، فتطورت المدينة حيث كانت "تقصد هاجر اليها الاسكندرية" والشام وقد نوه الادريسي بثراء سكانها وان المدينة كان بها حوالي الف فندق ولا شك ان هذا العدد الكبير من الفنادق لدليل على اهمية المدينة من الناحية التجارية والاجتماعية.

لكن المدينة الغنية فقدت مكانتها زمن الموحدين لعالم مدن اخرى خاصة سبتة واشبيلية وهو ما يجعلنا نتساءل عن الاسباب التي أدت الى هذا التراجع الملحوظ، ايعود ذلك الى صعوبة تعمير المدينة بعد ان هاجمها النصارى وعاثوا فيها فسادا أم يرجع الى الاجراء الذي اتخذته القيادة الموحدية في نقل النقل العسكري البحري من المرية الى سبتة؟ ومهما يكن فان التاريخ يؤكد ان المرية دخلت في عملية تراجع لم يتوقف زمنا طويلا حتى اننا لم نعد نعثر لها على دور في كتب التاريخ وبقيت غائبة عن صنع الاحداث الى ان سقطت في يد فرديناند الكاثوليكي.